

تاريخ الثورة الروسية لـ تروتسكى

بقلم فؤاد محمد شبل

١ - حياته :

الاسم الأصلى لتروتسكى : ليف دافيدوفتش
Lev Davidovich Bronstein وبرونشتين
ولد عام ١٨٧٩ من أبوين يهوديين استوطنوا مدينة
« خرسون » بجنوب أوكرانيا . واسم تروتسكى
الذى اشتهر به طوال حياته كان فى الأصل اسم
سجان فى سيبيريا استعاره ليتستر وراءه فى الفرار
من سجنه بسيبيريا بجواز سفر مزور .

كان تروتسكى طالبا متفوقا على أقرانه طموحا
أنايا . وتأثر فى بداية الأمر بعمه ذى العقلية
الليبرالية . وانكب منذ حداثته على القراءة
والاطلاع مما أهله لتحرير الدراسات والمقالات ولم
يكن قد تجاوز السادسة عشرة . واجتذبه بالذات
المؤلفات المتصلة بالمرح والفن والآداب والرياضيات
البحثية . وتبلورت أمانيه فى تكريس نفسه للعمل
الأكاديمى عن طريق التدريس والتأليف . وهذا
ما لم يرض والده ذا الطابع اليهودى العملى .

واتصل بالآراء الثورية لأول مرة وقتما كان
طالبا باحدى مدارس مدينة نيكولايف الثانوية .
وكانت أوروبا تموج وقتذاك بالآراء الثورية
وتستهوى الشباب الروسى بعدما فشلت الآراء
الليبرالية الغربية فى تحقيق الخلاص لروسيا ،
وأخفقت بالمثل آراء الفوضويين من أتباع باكونين
وأتباع مذهب العدمية . فكان أن أقبل شباب
جيله على الاطلاع على الآراء الثورية الاشتراكية
بعدما أصيبوا فترة من الوقت بالبلبل الفكرية نتيجة
لاصطراع الآراء والمذاهب الفكرية المتضاربة
التي طفق أشتات المفكرين ينادون بها وينافحون
عنها فى حماس وغيرة بالغين .

وهكذا ، انتهى المطاف بتروتسكى وكثير من
زملائه الى اعتناق الماركسية . لكن اعتناقه المبادئ
الماركسية قد حال دون مواصلته الدراسة الجامعية
وتكريس نفسه بالتالى للعمل العلمى البحت ، بعد
تخرجه من مدرسة نيكولايف الثانوية بمرتبة
الشرف الأولى . فلقد خلف الرياضيات البحتة وراء

ظهرانيه بعد أن أسرته الدراسات السياسية وأصبحت شغله الشاغل . اذ لم يمكث بجامعة أوديسا الا فترة قليلة ثم قبض عليه وأودع السجن ونفى الى سيبيريا لتزعمه حركة انشاء منظمة اشتراكية بين عمال المدن^(١) وتولية رئاسة تحرير صحيفة تطبع باليد وتدعو للانقضاء على الحكومة ، وغشيانه الاجتماعات الثورية وخطابه فيها .

ولقد شاهدت بداية القرن العشرين انتعاش النشاط الثوري في روسيا وتجلّى في حركة اغتيال الحكام والاضرابات والمظاهرات . وانقطعت علاقة تروتسكى المباشرة بالزعماء الثوريين الجدد المقيم منهم في روسيا أم في البلاد الأجنبية . وما كان مستطيعا أن يكتب بحرية وكانت الكتابة شيئا حيويا في تكوين فكرة الذاتى . واذا كان الرقيب يتساهل بالنسبة للموضوعات الأدبية ، أمكن تروتسكى وغيره من المناضلين الروس أن ينفذوا من خلال هذه الثغرة فى الرقابة على الكتابة لنقل آرائه الى رأى العام . وعندئذ أخذ يتعلم صفتين مميزتين للسياسى الثورى : وضوح التعبير وضبط النفس .

ولم تمكنه الظروف من تحقيق أمنية جاشت بنفسه طويلا : اقتناء مجموعة كاملة من صحيفة « القبس Iskra » لسان حال المهاجرين الروس ، والاتصال بلينين رئيس تحريره وتحققت أمنيته عام ١٩٠٢ وقتما وفق للفرار من منفاه بسيبيريا الى لندن حيث التقى بلينين وساهم معه فى تحرير صحيفة القبس .

(١) اتحاد عمال روسيا .

وكانت الصحيفة لسان حال الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى . لكن دأب أعضاء الحزب على الشجار والتنازع . وكان قطبا الحزب : لينين وبلخيانوف أبعد الناس عن التسامح أحدهم تجاه الآخر ، ان اتصل الأمر بمسائل الحزب . وتلقى تروتسكى عن هذين القطبين الاشتراكيين الشئ الكثير ، لكن اذا كان هذا التأثير اليهودى الرومانطيقى النزعة قد ارتضى أن يصبح فى مركز المرید ، فما كان ليرضخ لسيطرة أحد . ومصدقا لهذا رأى ، لم ينضم الى صف المنشفيك أو الى صف البولشفيك وقتما انقسم الحزب بسبب الخلاف على التنظيم ، لكنه دأب على مجادلة أفراد الفريقين - على السواء - فى عنف بالغ (٢) .

وعاد تروتسكى عام ١٩٠٥ الى روسيا ليصبح عضوا فى سوفيت نواب العمال . وكرس جهوده لاصدار عدد من الصحف . ونفى مع بقية أعضاء السوفيت الى سيبيريا ، لكنه تمكن من الفرار للنمسا حيث استقر به المطاف واستطاع أن يجلب معه صحيفة البرافدا لسان حال الحزب البولشفى ووفق فى أن يجمع حوله جماعة من أنصار الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى تسعى للتوفيق بين جناحى الحزب المتنازعين (أى

(٢) حدث فى بعض عمليات اقتراع مؤتمر الحزب الاشتراكى الديمقراطى خلال عام ١٩٠٣ أن صوتت أغلبية أعضاء المؤتمر فى صف لينين وانحازت الاقلية الى ماراتوف وبتروسوف وبلخيانوف . ومن هنا نشأ اصطلاحا البولشفيك (أى أصحاب الاغلبية) والمنشفيك (أى أصحاب الاقلية) . فعام ١٩٠٣ اذا العام الذى نشأت فيه البولشفية مدرسة فكرية وحزبا . وأساس الخلاف بين الفريقين ايمان المنشفيك بمبدأ التدرج واستخدام الوسائل السياسية السلمية لتحقيق الدولة الاشتراكية المرتجاة بينما يحتقر أنصار البولشفيك هذا الاسلوب ويؤمنون باستخدام القوة والعنف لتحقيق أغراضهم . انظر صفحات ١٢ - ١٨ من رسالتنا الجامعية «دراسة تحليلية انتقادية للدستور السوفيتى» .

البولشفيك والمنشفيك) . وهذا ما لم يرض عنه البولشفيك .

ولم ينضم الى صف لينين بكلياته الا عام ١٩١٧ وها هنا بذل له الولاء الخالص ، ولكن ولاء الند للند ، ولم يغير موقفه هذا قط ، لكن لم يجمعهما الفكر فى صعيد واحد بقدر ما جمع الفعل بينهما . فلقد تباينت وجهة نظرهما بالنسبة لكثير من النقاط حتى ما اتصل منها بالموضوعات السياسية الطابع ، لكن ما ان يصل الأمر الى محيط العمل حتى تختفى المجادلات وينزاح النزاع جانبا ، ولا يسمحان للاختلاف بافساد خطة العمل المشترك .

وعندما نشبت ثورة فبراير سنة ١٩١٧ التى أطاحت بالنظام القيصرى ، توجه تروتسكى الى روسيا وانضم للحزب البولشفى . ثم شغل عقب نجاح ثورة اكتوبر ١٩١٧ طائفة من المراكز الرفيعة : قوميسار الشؤون الخارجية ، قوميسار الحرب ، قوميسار المواصلات . واتخذ أثناء المباحثات التى جرت لاقرار السلام بمدينة برست لينوفسك بين الجانبين الروسى والألمانى موقفا معارضا لسياسة لينين . اذ تثبت بعدم ابرام الصلح والامتناع عن مواصلة الحرب على السواء .

واستمر طوال الأعوام التالية يعارض آراء لينين بالنسبة لعدد من المسائل . فلما توفى لينين واشتدت مناهضته لسياسة ستالين ، الأمر الذى دعا منذ عام ١٩٢٥ لتجريد تدريجا من مناصبه . وأمكن ستالين فى نوفمبر ١٩٢٧ من طرده من الحزب بحجة تزعمه حركة سرية تعمل على حطم سلطان الحزب . وتقرر بمؤتمر الحزب

المنعقد فى ديسمبر سنة ١٩٢٧ بمدينة ألما آتا نفيه . وطرده عام ١٩٢٩ من البلاد فعلا . وفى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤٠ قتله أحد عملاء ستالين بمدينة المكسيك .

كان تروتسكى من أقرب الزعماء الى قلوب الجماهير خلال ثورتى ١٩٠٥ و ١٩١٧ . وشغل فى كلتا المناسبتين منصب رئيس مندوبى عمال بتروجراد . وكان ساعد لينين الأيمن فى أعداد خطة الاستيلاء على السلطة ، ورسم بالذات خطة الانقلاب فى بتروجراد . وغدا زعيم الجيش الأحمر خلال الحرب الأهلية ، ونظاليه على أنه الرجل الثانى بعد لينين .

٢ - منحى تروتسكى التفكيرى

ظل تروتسكى منذ عام ١٩١٧ حتى وفاته يعتبر نفسه من مريدى لينين . لكنه كان أقل من لينين مرونة وأشد التصاقا بوجهة النظر الديمقراطية القائلة بقيام الاشتراكية فى البلاد الرأسمالية التى تبلغ ذروة التقدم الصناعى . وهذا ما دفعه للقول بأن الثورة الاشتراكية لن يقبض لها النجاح الا أن أشعلت الثورة البروليتارية فى أنحاء أوروبا الغربية . وفى هذا تفسير معارضته ابرام معاهدة الصلح مع ألمانيا عام ١٩١٨ ومناهضته بعد ذلك سياسة ستالين القائلة بتشييد الاشتراكية فى بلد واحد .

ومن مظاهر افتقار تروتسكى الى المرونة ، منافحته عن فكرة تحويل نقابات العمال الى نوع من جهاز الدولة أعظم قدرا مما هو عليه فعلا . وليست اختلافاته مع لينين بعد عام ١٩١٧ بذات أهمية ان قورنت بتقبله آراءه عن دور

الحزب وأساليب سلطته ، ويدخل فى ذلك الأساليب الارهاقية .

وكان لتروتسكى تأثير عميق كخطيب مفوه ومناظر قوى الشكيمة ، فكان يهر سامعيه بذلاقة لسانه وحضور بديهته ، لكن ما كان يستطيع اقناع المرتابين والمترددین منهم بالسهولة التى كان يستطيعها لينين . فاذا كان لينين لم يؤت موهبة تروتسكى الخطابية لكن بساطة تفكيره واستقامة غرضه أهلتاه لاقناع سامعيه ، وبالأحرى ، كانت الخطابة عند لينين تدخل فى محيط السياسة العملية بينما كانت عند تروتسكى فنا رفيعا ، فتروتسكى أقدر على الاستثارة ، بينما وهب لينين قدرة الاقناع ، فمن ثمت ، عاشت خطب لينين وأقواله ، وامحى تأثير خطب تروتسكى وأحاديثه .

ويجمل ستالين أخطاء منحى تروتسكى التفكيرى فى ثلاث نقاط جوهرية :

الأولى - انكاره احتمال قيام الاشتراكية فى بلد واحد . وهو الرأى الذى اعتنقه وطبقه ستالين ووفق وفيه .

الثانية - نبذة فكرة التحالف بين البروليتاريا والفلاحين ، وكانت عماد سياسة لينين الداخلية ودعامتها .

الثالثة - مطالبته بتوفير قسط من الديمقراطية داخل الحزب . ويعنى هذا لدى ستالين الاخلال بقواعد الطاعة والنظام الواجب توافرها فى هيئة مناضلة ، بما يترتب على ذلك من انبعاث جماعات متنازعة داخله ، مما يقوض دعائمه فى نهاية المطاف .

والحق ، يتبلور الفارق بين تروتسكى وستالين فى الفارق بين المثقف الأريب ورجل الفعل ذى

النزعة المكيافيلية . أجل ، تلقى ستالين قسطا لا بأس به من التعليم ، لكنه يعتبر غير مثقف ان قيست معارفه بمعارف صفوة المثقفين الروس الذين ضمتهم صفوة الحزب فى عهد لينين . فبينما لازم ستالين البيئة الروسية طوال حياته ، احتك زملاؤه - أو معظمهم - بالمفكرين الأوربيين سواء بالاطلاع على آرائهم أم بالاتصال الشخصى فنالوا قسطا من المعرفة لم يتح له قط مما جعله مثار سخرية زملائه من أعضاء المكتب السياسى ان ثار الجدل وتناول النقاش موضوعا ذهنيا ، وهذا ما لم ينس له ستالين قط . ولا وجه للمقارنة بين ثقافة تروتسكى الأدبية ومعارفه التى بلغت الذروة وضحالة ثقافة ستالين . فالواقع ، كان تروتسكى أكثر معاصريه اطلاعا وأشد هم انكبابا على القراءة الدسمة ، واتسع أفق اهتماماته فشملت الكثير من المعارف البشرية .

واتسمت كتابات تروتسكى بالقوة والوضوح . وكان مثل جميع زملائه القدامى يعشق الجدل فى المسائل الذهنية لا سيما أن اقتضى الأمر أن يبذل جهدا شاقا ليقيم الحجة على خطأ رأى يعارضه وما كان ينظر الى مخالفه فى الرأى نظرتة الى خصوم ألداء . ويعتبر مؤلفه « حياتى » ويتناول سيرته الذاتية وكتابه « تاريخ الثورة الروسية » قمة آثاره ككاتب عظيم . وتقمص فى كتابه هذا شخصية المؤرخ النزيه الدقيق الذى يتوخى بيان الحقيقة المجردة ، وان لاحظ الباحث حرصه على الدفاع عن سياسته وتبرير تصرفاته .

ويعتبر تفسير تروتسكى للمذهب اللينينى فى الاشتراكية - بعد وفاة لينين - من الأهمية بمكان عظيم . ففى عام ١٩٢٤ نشر رسالته « دروس أكتوبر » وفيها يقرر ان لينين قد اعتنق

فكرة تروتسكى عن تمويل عملية تصنيع البلاد على حساب الفلاحين .

٣ - نظرية الثورة الدائمة

كان تروتسكى يمثل داخل الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى وجهة نظر ثلاثة تفترق عن فريقى البولشفيك والمنشفيك على السواء .

اذ عارض فريق المنشفيك بتقبله فكرة استيلاء الطبقة العاملة على السلطة وبمناهضته فكرة التعاون مع البورجوازية .

وعارض فكرة لينين القائلة بتحالف العمال مع الفلاحين . اذ كان من رأيه أن ضالة عدد العمال فى روسيا - لضعف تقدمها الصناعى ابان عصره - مع ضخامة عدد الفلاحين يقود على طول المدى الى سيطرة الفلاحين على الثورة فينتفى معناها ومغزاها البروليتارى وفقا للتعاليم الماركسية الأصلية . وقاده هذا الرأى الى اعتناق فكرة الثورة الدائمة .

ولقد كان « بارفوس » Parvus الاشتراكى الألمانى الأصل المولود فى روسيا ، أول من أشار عام ١٩٠٥ الى نظرية الثورة الدائمة ، ثم تناولها تلميذه تروتسكى بالشرح والتفصيل ، وظل حتى نهاية حياته مؤمنا بأن أحداث ثورة ١٩١٧ الروسية قد دلت على صحة نظريته .

وتعتبر النظرية حصيلة تفاعل الأسلوب الماركسى الألمانى بالأسلوب الماركسى الروسى قبل عام ١٩١٤ . ويجافى جوهرها جميع الصيغ التى وضعها المذهب الماركسى قبل عام ١٩٤١ لعالم الاشتراكية العتيد . ومدار النظرية :

فكرة الثورة الدائمة عقب خلع نير النظام الملكى عام ١٩١٧ . وهذه هى الفكرة التى آمن بها تروتسكى منذ عام ١٩٠٥ ، وتعنى فى جوهرها امكان تحول الثورة البورجوازية - فى ظل ظروف خاصة - الى ثورة بروليتارية دون ما ضرورة لتوافر فترة متوسطة تحكم خلالها البورجوازية ، وآمن تروتسكى بأن فى تطبيقها حل مشكلات روسيا .

ومهما يكن من الأمر ، فلا شبهة فى أن تروتسكى قد انحرف عن منحى لينين التفكيرى بالنسبة للمسائل المتصلة بتوجيه شئون الحزب الداخلية ، ولقد تحمل لينين انحرافه لحاجته الماسة الى معاوته ، ولأنه - أى لينين - لم يجد ضيرا من اختلاف الآراء طالما حسنت النوايا وسلمت المقاصد ، وهذا ماضاق به ستالين ذرعا فيما بعد ، ذلك لأن ستالين قد رأى فى اختلاف الرأى انقسام الارادة وتشتت الجهود ، ومن الناحية الأخرى ، اتهم تروتسكى ستالين بالتردى فى التحلل البيروقراطى وبالاتجاه صوب الرأسمالية لاسيما بعد قيام ستالين بتنفيذ السياسة الاقتصادية الجديدة واقباله على فكرة تشييد الاشتراكية فى بلد واحد .

ولقد وجدت فكرة تروتسكى عن التحلل البورجوازى للحزب الشيوعى السوفيتى صداها عند كثير من الباحثين أخص بالذكر منهم « جيمس بيرنهام » Games Burnham

الذى صك نظريته عن ثورة المديرين ومجتمع المديرين ومعمار هذه النظرية أن الدول الاشتراكية لاتحكمها البروليتاريا ولكن تحكمها طبقة من المديرين تستمتع بشمرات النظام الاشتراكى ولا يخفى على الباحث أن ستالين نفسه قد طبق

أولا - لا يمكن للثورة الروسية أن تظل ديمقراطية المنحى كلية ، فلقد آمن تروتسكى بأن لامناص لحكومة الثورة من أن تقدم للعمال امتيازات مثل توفير العمل للمتعطلين واستيلائها على الصناعات التى يرفض أصحابها رضاء احتياجات العمال .

ثانيا - افترض أن الفلاحين - ويعتبرهم بأصلهم أصحاب عقلية رأسمالية - لن يسلموا بهذه المطالب ، فينزلقون للتصادم مع العمال ، فانقيض النصر للعمال فى صراعهم مع الفلاحين ، يستحيل - مع تخلف البلاد الاقتصادى - تنفيذ التدابير الاشتراكية الضرورية .

ثالثا - يبنى على ماتقدم اعتباره الحل الوحيد لانفلات روسيا من مأزقها السالف الذكر ، اندلاع ثورة فى أوروبا الغربية فيتكاتف عمالها مع عمال روسيا لتشييد صرح الاشتراكية دوليا .

ولا شبهة فى أن تروتسكى قد أقام نظريته - أساسا - على فكرة ماركس القائلة بأن الاشتراكية لا تنهض الا فى بلد متقدم صناعيا وبلغ عماله ذروة الوعى الطبقي ، فاذا كانت ظروف روسيا فى أوائل القرن العشرين لم تكن لتسمح بقيام الثورة البروليتارية وفق نظرية ماركس ، فلا مناص من تأزر عمالها القليلي الحول والطول ازاء غلبة الفلاحين الساحقة على المجتمع الروسى: تأزرهم مع عمال أوروبا الغربية الذين يتوافر لديهم دعائم الثورة البروليتارية المرتجاة ، فتندلع ثورة أوروبية عامة تكون ثورة روسيا جزءا منها، فتتمكن الثورة العتيدة عما لروسيا من التغلب على مقاومة الفلاحين ومناهضتهم المتوقعة لسيطرة العمال على الحكم .

وكان تروتسكى قد تخيل قبل نشوب ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ بسنوات قليلة ، نشوب ثورة اشتراكية دولية تنطلق شرارتها من روسيا فى أعقاب انتفاضة ديمقراطية ضد القيصرية ثم تنتشر فى جميع أنحاء أوروبا الغربية ، واعتبرت الفكرة شيئا جديدا على الأيديولوجية الاشتراكية الأوربية فى ذلك الحين ، وذلك وقتما أصبحت الثورة الاشتراكية تعبيرا يخلو من الطابع العملى ، وحينما تبلورت قيمة الهدف النهائى للاشتراكية فى أعين مفكرى الاشتراكية فى انتقال المجتمع تدريجيا الى النظام الديمقراطى للاستملاك الحكومى لوسائل الإنتاج .

وعرض تروتسكى فى رسالة عنوانها « الثورة الدائمة » نشرها عقب طرده من روسيا للاختلاف بين رأيه ورأى لينين حول موضوع اشتراك ممثلى البروليتاريا - كأقلية - فى حكومة ديمقراطية وكان - كلاهما - يتوقعان تأليفها لو نجحت ثورة ١٩٠٥ ، فأما لينين فوافق على الانضمام لحكومة يستأثر فيها ممثلو الفلاحين - أى حزب الاشتراكيين الثوريين - بأغلبية الوزارات ، لكن أصرت تروتسكى على أن تصبح للبروليتاريا الأغلبية المطلقة ، وتتألف البروليتاريا فى نظره من المثقفين الماركسيين ومن الساسة والعمال الثوريين .

وحسمت ثورة ١٩١٧ هذا الخلاف الفكرى ، فلقد تم - بفضل لينين - التحالف بين الفلاحين والعمال فى نطاق السوفييتات التى أنشئت عقب اندلاع الثورة ، ولكن مع احتفاظ البولشفية بالأغلبية مصداقا لرأى تروتسكى .

ولما جابهت ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ عداء العالم الرأسمالى الضارى ، اتجهت الأفكار الى نظرية تروتسكى عن الثورة الدائمة ، اذ أملت

الحكومة من اندلاع الثورة. فى أنحاء الغرب
واشاعة الاضطرابات فى أنحاء البلاد الأسيوية
والافريقية اتاحة الفرصة لحكام روسيا لتنظيم
البلاد وفق منحاهم التفكيرى الخاص ، فأنشأوا
منظمة « الدولية الشيوعية » (الكومنترن) عام
١٩١٩ لتجمع حولها الهيئات الشيوعية الدولية وفق
المخطط الذى يضعه لها القادة السوفيت .

ومن أسس نظرية الثورة الدائمة أن البلد
المختلف اقتصاديا مثل روسيا قد ينجز الانتقال
الى الاشتراكية قبلما يتمكن الغرب المتقدم
اقتصاديا من بلوغ هذه المرحلة المرتحلة ، وها هنا
يطفر الى ذهن الباحث السؤال التالى :

هل نظرية الثورة الدائمة مجرد صيغة ماركسية
للمنهج السلافى والروسى الشعبى القديم عن رسالة
مسيانية (١) لروسيا الفتية البدائية المعافية تقود
أوروبا المتداعية فى طريق الخلاص ؟

على العكس ، نظرية الثورة الدائمة من خلق
مفكرين (بارفوس وتروتسكى) يعتبران من أكثر
الشخصيات الروسية استيعابا للثقافة الغربية
وتأثرا بها ، ويؤثر عنهما ازدهار المنحى التفكيرى
الروسى التقليدى ، وقد نادى بارفوس بضرورة
نشوب الثورة الاشتراكية فى ابان جيله ، واستنكر
رأى القائلين باندلاعها ابان عصر قادم بعيد ، وهذا
مايعنيه تعبير الرسالة المسكانية ، وقد تأثر تروتسكى
بارائه وكان لايزال مقيما بروسيا .

لكن يجد الباحث - من الناحية الأخرى - فريقا
كبيرا من الاشتراكيين الألمان يعتقد فكرة أنوميزم

الحركة الاشتراكية الألمانية يخبو تدريجيا ، ويعبر
كبيرهم كارل كوتسكى عن الفكرة بالقول بأن
شعلة النضال ستفد من روسيا فتبث فى أوصال
الاشتراكية الألمانية قوة جديدة ، ففى مقال كتبه عام
١٩٠٢ (٢) قرر أن مركز الكفاح الثورى قد ينتقل
من ألمانيا الى روسيا وأن النسمة الندية الوافدة
من الشرق قد تمزق أنسجة العنكبوت التى أخذت
تحط على الحزب الاشتراكى الألمانى ، ولما هزمت
روسيا فى حربها مع اليابان توقع « بارفوس » أن
تندلع فى روسيا ثورة تهز العالم فتصبح البروليتاريا
الروسية طليعة الحركة الاشتراكية الدولية (٣) ..

وفى النصف الثانى من عام ١٩٠٤ ، وفد
تروتسكى الى ميونخ ليقيم مع بارفوس ، واتحد
الرجلان فى مناهضة آراء لينين خلال انقسام الحزب
الاشتراكى الديمقراطى عام ١٩٠٣ ، وكان على
رأس معارضى لينين : بارفوس ، تروتسكى ، روزا
لوكسمبرج ، كوتسكى ، واعتنقوا فكرة الاعتماد
على الطبقة العاملة لتحقيق خلاص روسيا المرتجى ،
واعتبر تروتسكى اضراب العمال فى يناير سنة
١٩٠٥ واشتباكهم مع الحرس القيصرى أمام قصر
الشتاء فى بتروجراد أول فصول قصة كفاح العمال
ضد البورجوازية .

فكان فكرة الثورة الدائمة تعنى فى صميمها أن
يعهد الى قلة ضئيلة من عمال المصانع فى المدن
بدور هائل لم يكن ليتناسب وقتذاك بأية حال
من الأحوال مع عددهم ان قيس بالكثرة الضخمة
التى يمثلها الفلاحون الذين اعتبرهم بارفوس
وتروتسكى جماعة اجتماعية ليس لها كيف يوصف

(٢) نشر بصحيفة ايسكرا « القبس » فى ١٠ مارس سنة

١٩٠٢ .

(٣) المرجع السابق - عدد أول يناير ١٩٠٥ .

(١) نسبة الى لفظ «مسيا» أى المسيح عليه السلام . ويعنى
الاصطلاح تحقيق المجد بفضل شخصية (أو أفلية) ملهمة تتولى
قيادة المجتمع .

يؤهلها للمشاركة فى رسالة المجتمع السياسية ،
الأمر الذى يوجب - فى رأيهما - أن تصبح
الحكومة الثورية المؤقتة العتيدة حكومة ديمقراطية
عمالية ، وما كان هذا ليرضى معظم مفكرى ذلك
العصر : فابرى لينين فى أبريل سنة ١٩٠٥ يشجب
الفكرة فوصفها بالروعة والطيش لأن حكومة
تقيمها الطبقة العاملة وحدها سيكون أساسها
الاجتماعى واهيا الى أبعد الحدود ولن يكتب لها
البقاء الا على أساس تحالف البروليتاريا مع الفئات
التقدمية من الطبقات الوسطى الحضرية وجماهير
الفلاحين المعدمين .(١)

وعلى الرغم من قيام النظام الاشتراكى فى
روسيا بفضل ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ ، نجد
تروتسكى يقرر عام ١٩٢٤ فى الطبعة الجديدة
لكتابه «برنامج السلم» الذى كتبه عام ١٩١٧ أن
الشعب الروسى لم يتخذ بعد الاجراءات التى تكفل
اقامة المجتمع الاشتراكى فى بلاده ، وأنه لن
يستطيع ذلك الا بعد فوز البروليتاريا فى بلاد
أوروبا المتقدمة صناعيا .

وصفوة القول ، صدف تروتسكى عن الايمان
بقدره البروليتاريا الروسية على انقاذ روسيا ،
وتفرع عن هذا رأى ايمانه بضرورة العون
الخارجى فى صورة ثورات خارجية تؤيد الثورة
الروسية .

وظاهر أن لينين نفسه لم يؤمن بقدره البروليتاريا
الروسية على تأدية رسالتها وفقا للمذهب الماركسى
مما دفعه للمطالبة بتحالف العمال والفلاحين الى أن
تستقر الأمور للبروليتاريا أما ستالين ذو المنحى
العملى ، فلقد أحال الاستثمار الزراعى الى نوع

(١) صفحات ٢٦٢ - ٣ من الجزء الثامن من مجموعة أعمال
لينين (الطبعة الروسية) .

طريف تحولت المزارع بمقتضاه الى ضرب من
المصانع فى الهواء الطلق .(٢)

وينبنى عن فكرة تروتسكى هذه - فى جوهرها
- عزوف القائمين على الحكم فى البلاد عن تمكين
التنظيم الاشتراكى انتظارا لاندلاع الثورات
الشاملة فى بلاد أوروبا المتقدمة صناعيا ، والى أن
تأتى المساعدة المرتجاة ، يتعرض النظام للانهار .
وهذا مادعا ستالين للقضاء على تروتسكى وأنصاره
والمناداة بفكرة تحقيق الاشتراكية فى الاتحاد
السوفييتى دون انتظار للثورة المرتقبة .

فالحق ، سيطر التفاؤل على تروتسكى فآمن -
على حد قوله - بأن أوروبا ناضجة للثورة وأن
نشوب الثورة الروسية مقدمة لاندلاع الثورات
البروليتارية فى البلاد المتقدمة صناعيا ، فى حين
كان ستالين واقعيا لعلمه بقدره النظام الرأسمالى
فى دول أوروبا الغربية ومرونته معا . الأمر الذى
يصد عمال تلك البلاد عن الانقضاض عليه ، وبالتالي
آمن ستالين بفكرة تحويل روسيا الى قلعة
للاشتراكية وانطلاق الاشتراكية منها - بعد نجاحها
- تغزو العالم .

ولعمرى ، تلك صورة من صور النزاع القديم
بين أصحاب الاقتباس من الغرب والامبتناد عليه
حضاريا ، وأنصار فكرة رسالة روسيا المقدسة :
أولئك الذين آمنوا بعبقرية الجنس السلافى وسموه
على الجنس النوردى واللاتينى . أو بعبارة أدق
صورة من الصراع بين حضارة أوروبا الشرقية
« وريثة الحضارة البيزنطية » وحضارة أوروبا
الغربية « وريثة حضارة روما » .

(٢) ترجى مراجعة رسالتنا الجامعية « دراسة تحليلية
انتقادية للدستور السوفييتى » صفحات ٢٩٣ - ٣٠٧ .

٤ - طابع فكرة تروتسكى عن التاريخ الروسى :

يعزو أعداء تروتسكى أخطاءه السياسية الى منحاه الفلسفى القائم على استحالة كفالة الاشتراكية فى روسيا وحدها بدون استقرار الاشتراكية فى جميع أنحاء أوروبا ، ويعتبرون هذا المنحنى الفلسفى - بدوره - صدى تفسيره التاريخ وفهمه المادية التاريخية على أساس الجبرية (١) ، بما يعنيه ذلك من الايمان بأن القوى الانتاجية هى العامل الحاسم فى سير الأحداث التاريخية ، وتحكم المصادفة الآلية الطابع فى تطور هذه القوى ، وبما أن علاقات الانتاج الجديدة تنبى - آليا - كنتيجة للقوى الانتاجية ، واذا كانت أوروبا - ومن ضمنها روسيا - تؤلف جهازا واحدا ، يستحيل بالتبعية قيام الاشتراكية فى روسيا من غير قيامها فى أوروبا بأسرها .

أما الأيديولوجية السوفيتية الرسمية فمدارها اعتبار قوى الانتاج وعلاقات الناس بالانتاج - كليهما - العامل الحاسم فى مسير التاريخ .

وفى الحق ، تنبى للباحث من خلال دراسة ما كتبه تروتسكى عن المادية التاريخية نزعة واضحة المعالم ، هى فى الواقع صدى آراء الماركسيين الروس الأوائل الذين جهدوا فى ابراز الطابع الموضوعى للتاريخ : طابع تسيطر عليه الضرورة ، لا العدالة . وفى هذا المعنى يقول تروتسكى فى كتابه « تاريخ الثورة الروسية » (٢) :

« الثورة - بصفة عامة - كالتاريخ لا يتيسر تفهمه بمجرد اعتباره عملية موضوعية مشروطة ، إذ

يجابه ارتقاء الشعوب مشكلات لن يتأتى حلها الا عن طريق الثورة . وفى غضون فترات معينة ، يهب اعصار الثورة بقوة تلقى الأمة بأسرها فى دوامة عاتية ، وليس ثمة أئفه من اضعاف المقاييس الخلقية على الكوارث الاجتماعية . ومن ثمت ، تصدق قاعدة « سينوزا Shinoza » القائلة بأن لاداعى للبكاء ولا للضحك ولا الكراهية ولكن الشئ المهام وحده هو الأجدى .

لكنه يقرر بموضع آخر من كتابه « تاريخ الثورة الروسية » (٣) أن المادية الجدلية لا صلة تربطها اطلاقا بالجبرية .

وفى موضع ثالث من نفس الكتاب (٤) يتصل من الرأى المنسوب اليه القائل بأن علاقات الانتاج تتغير آليا وقتما تحرز القوى الانتاجية مستوى معيناً من الارتقاء ، فانه القائل :

« .. على أن تصرفات المجتمعات فى البناء والتشييد لا تتطابق مع العقل ، بحيث يمكن القول بتحقيق ديكتاتوريات البروليتاريا فى نفس الوقت الذى تغدو فيه الظروف الاقتصادية والاجتماعية موالية للاشتراكية ».

ويقتررب تروتسكى هنا اقترابا وثيقا من رأى لينين عن الدور الذى يؤديه الوعى فى التطور التاريخى .

كذلك فانه عند تقييم دور الفرد فى التاريخ ، ينزع تروتسكى للسماح بوجود قسط من اللا حتمية (٥) ، ويجنح لتوكيد العامل الذاتى فى

(٣) صفحة ٣٦٦ من الطبعة الانجليزية .

(٤) صفحة ٣٥٦ .

(٥) مذهب الاختيار .

(١) الجبرية : مذهب القضاء والقدر .

(٢) صفحة ٧ .

الماركسية . ومصادقا لهذا الرأى يقول فى كتابه
عن دور لينين(١) فى الثورة الروسية :

« لم يفرض لينين خطته على الجماهير ، لكنه
ساعدها على التعرف على خطتها الذاتية والتحقيق
منها . فان كان على استعراضنا أن يظهر ويبين شيئا
ما ، فاننا لنأمل أن يدلل على أن لينين لم يكن
القول الفصل فى العملية الثورية ، واقتصر دوره
على الاندماج فى سلسلة من القوى الانتاجية
الايجابية .

على أن تروتسكى - من الناحية الأخرى -
يخص لينين بأهمية بالغة تنتهى الدقة فى عملية
نجاح الثورة ، فانه يسائل نفسه بقوله :

« هل يتيسر مع ذلك أن نقول عن يقين بأنه
فى ممكنة الحزب أن يتلمس طريقه بدونه ؟

ويجب عن السؤال بقوله « لن نجراً على قول
ذلك بأية حال من الأحوال .. ان دور الشخصية
ينهض أمام أعيننا فى أروع الصور ، ولا يقتضى
الأمر سوى فهم هذا الدور فهما صحيحاً متخذين
الشخصية حلقة فى السلسلة التاريخية »(٢) .

وقد يبدو للباحث أن تروتسكى يتذبذب عند
هذه النقطة بين فكرة المادية فى صورتها المتزمتة
القائمة على الجبرية وبين توفير قسط أعظم من
حرية الرأى ، لكن يستين للباحث من استقراء
آرائه أنه يسعى حثيثاً للتوفيق بين العاملين ، بمعنى
إبراز أهمية الجماهير ودور الفرد . ولا شبهة فى
ادراك تروتسكى للحقيقة القائلة بتأدية العاملين
كليهما دوراً جوهرياً فى التاريخ : سواء تجلى

(١) صفحات ٣٦٢ و ٣٦ من الجزء الأول .

(٢) صفحة ٣٦٦ من الجزء الأول من تاريخ الثورة

الروسية .

الدور فى فعل الأفراد أو فى تطور الجماعة تطورا
لا شعوريا خفياً . ويعبر تروتسكى عن هذه الفكرة
بقوله :

« على أساس دراسة العمليات السياسية داخل
الجماهير نفسها ، يتيسر تفهم دور الأحزاب
والزعماء الذين أقل ما نفعله حيالهم ميلنا لتجاهلهم .
فلا يقتصر الأمر على أنهم يؤلفون عنصراً مستقلاً
فى العملية السياسية ، بل انهم عنصر هام للغاية
فى العملية . ذلك لأنه بانتفاء التنظيم المرشد
الهادى من العملية السياسية ، تتبدد طاقة الجماهير
مثلاً يتبدد البخار الذى لا يحتفظ به داخل
المكبس . لكن المكبس لا يحرك الأشياء ، ولكن
البخار هو الذى يدفعها للحركة »(٣) .

وفى عام ١٩٠٥ نشر تروتسكى كتاباً سعى فيه
جاهداً لايجاد مبرر تاريخى ونظرى لفكرته الأثرية
الى عقله وقلبه : فوز البروليتاريا بالسلطة . وهذا
شعار ناهض به أتباع المنشفيك الذين رنوا لاقامة
جمهورية بورجوازية ديمقراطية ، كما خالف
البولشفيك الذين تآقت نفوسهم لتأسيس جمهورية
ديمقراطية من العمال والفلاحين .

ولقد استثارت آراء تروتسكى المنشفيك
بصفة خاصة . وتبلور ردهم فى فكرة مؤداها أن
السيادة السياسية للبروليتاريا لا مناص من أن
يسبقها فى الحدوث قيام جمهورية بورجوازية
ديمقراطية . اذ يقتضى الأمر اعداد البروليتاريا
لتسليم زمام الحكم بواسطة سلوكها طريقاً طويلاً
من التطور التاريخى . وتعنى محاولة تجنب عبور
هذه المرحلة التردى فى مجازفات ، واذا كانت
بروليتاريا أوروبا الغربية لاتزال عاجزة عن تسنم

(٣) صفحة ١٣ من المرجع السابق .

زمام حكم بلادها ، فان البروليتاريا الروسية أشد عجزا وقصورا عن تحقيق هذه الغاية المبتغاه .

واتجه تروتسكى فى دفاعه عن رأيه الى بيان خصائص تطور روسيا التاريخى العميقة الجذور . فنجده يشير بالذات للعوامل المؤكدة الثابتة التى تعوق تطور روسيا ويردها لتأثير وضغط الثقافة الغربية المتفوقة على الثقافة الروسية ، ولم يترتب عن ذلك محاكاة روسيا لأوروبا ، ولكن انبعاث خصائص فذة عميقة الجذور تتطلب دراسة مستقلة (١) . وتبرز هذه الخصائص من خلال حقيقة مدارها أن الرأسمالية الأوربية قد اجتاحت روسيا قبلما تهيأ للبلاد فسحة من الوقت لتعبر خلالها مرحلة الارتقاء التى مرت بها أوروبا الغربية قبلما تبلغ - أى أوروبا الغربية - مرحلة تطورها الحالية . ويمضى تروتسكى قائلا :

« لم تتطور الرأسمالية الروسية من الصناعة اليدوية الى المصنع الضخم عبر الصناعة الآلية الصغيرة . ذلك لأن رأس المال الأوربى الذى وفد فى بداية الأمر فى صورة تجارة ثم فى صورة تمويل مشروعات وقروض ثم فى صورة صناعة قد تدفق علينا وقتما كانت الصناعة اليدوية الروسية لاتزال ملتصقة بالزراعة » (٢) .

وترتب على ذلك أن روسيا ظلت بلدا متأخرا فى بعض النواحي ، بينما بلغت درجات التقدم فى النواحي الأخرى . أو بتعبير تروتسكى فى نفس الكتاب :

« ولهذا كان ظهور الصناعة الرأسمالية الراقية فى بيئة تغلب عليها البدائية الاقتصادية ، فكان ثمة

مصنع بلجيكى أو أمريكى تحيط به قرى مشيدة من الخشب والقش تحترق كل سنة . فكان فى روسيا أكثر من الابتداء بدائية وآخر النهايات الأوربية تقدما » .

ويعتبر هذا سر تخلف روسيا القاسى فى كثير من مناحى الحياة وتقدمها فى مجالات أخرى لاسيما فى المجال السياسى . ويعرض تروتسكى هذه النقطة على النحو التالى :

« ومن هنا جاء الضعف السياسى للبورجوازية الروسية : ضعف مكننا من تسوية حساباتنا معها فى يسر وسهولة ، لكن صادفتنا صعوبات جمّة وقتما تدخلت البورجوازية الأوربية . ولم تمر البروليتاريا الروسية بمرحلة نظام الطوائف التى مرت بها البروليتاريا الأوربية وكانت تسوده أخوة المهنة والصناعة . فالبروليتاريا الروسية قد انتزعت انتزاعا من وراء المحرث وألقت الى قزان المصنع فلا بدع وأن تنتفى من هذه البروليتاريا تلك التقاليد والخصائص التى تتسم بها البروليتاريا الأوربية ، ويأتى فى طبيعتها التمييز الطائفى ، ولهذا السبب امتازت بروليتاريتنا بعنفوان طاقتها الثورية مامكنها من اقامة أول حكومة عمال فى العالم » (٣) .

وبالأحرى ، مكنت خصائص التطور التاريخى الروسى روسيا من تجاوز أشكال الصيغ السياسية المتداخلة التى كان على أوروبا الغربية اجتيازها فى بداية عهدها بالحضارة الصناعية . وبفضل هذا أمكن البروليتاريا الروسية القبض على ناصية السلطان .

بيد أن نقاد تروتسكى قد هاجموا فى هذه

(١) صفحة ٥٠٧ من الجزء الأول من تاريخ الثورة الروسية .

(٢) صفحة ٥١٢ من المرجع السابق .

(٣) الجزء الأول من المرجع السابق .

النقطة بالذات . فلقد اتهموه باعتناق مذهب الاختيارية الخداع ، ومن رأيهم أن الماركسية لاتنكر بأية حال من الأحوال دور الشخصية فى التاريخ ، لكنها لاتعتبر الاختيار أساس ارادة الفعل لدى الفرد والطبقة على السواء ، بل تعتبر معرفة لحقيقة الموضوعية والاحتياجات الاقتصادية للطبقة هى المتأصلة فى ذلك الموضوع .

وأكيدا ، فإن تروتسكى وان دافع عن امكانية استيلاء البروليتاريا الروسية على الحكم فورا ، لكنه لايتصور ذلك الاستيلاء عملية ارادية عمياء كما يتهمه خصومه ، وهذا ماتبينه فى الواقع مقدمة كتابه « تاريخ الثورة الروسية » .

٥ - المعالم الأساسية لكتاب تاريخ الثورة الروسية

١ - قانون الارتقاء المركب وغير المستوى فى التاريخ الروسى :

يرى تروتسكى أن فى مكنة البلد المتأخر أن يستوعب غزوات البلاد المتقدمة - المادية والثقافية - ويتمثلها . لكن لايعنى هذا - لديه - انحطاط ذلك الى دور العبودية للبلاد المتقدمة مما يدفعه لاستيلاء جميع مراحلها الماضية . فان النظرية التى نادى بها المؤرخ « فيكو » ومريدوه عن تكرار الدورات التاريخية انما تستند على أوضاع الثقافات القديمة السابقة للرأسمالية ، كما أنها تستند بعض الشيء على التجارب الأولى للارتقاء الرأسمالى .

ومن رأيه أن فى مكنة البلد المتخلف تخطى أطوار الارتقاء الأولى . لكنه لا يأخذ بهذا رأى على علانه ، فعنده أن طاقات البلد الاقتصادية والثقافية

تعين مقدار ذلك التخطى . فاذا تولى البلد المتأخر تكييف المآثر المستعارة من الخارج لتتواءم مع ثقافته البدائية ، فقد يحط ذلك من قدر تلك المآثر تحت تأثير تخلفه . وها هنا - كما يقول - تضى عملية استيعاب الثقافة الأجنبية وتمثيلها على نفسها طابع التناقض ، وتأيدا لرأيه ، يسوق عدة أمثلة أخص بالذكر منها اقتباس روسيا فى عهد بطرس الأكبر طائفة من مظاهر الحضارة الغربية اذ قادت الى تعزيز الاسترقاق باعتباره الشكل الأساسى لتنظيم العمل فى ابان ذلك العصر كما أن تسليح الجيش الروسى بأسلحة أوربية واقتراض الأموال الاوربية - وكلاهما فى رأيه حصيلتان مؤكدتان لثقافة أسمى - قد جر الى تقوية السلطة القيصرية التى عرقلت بدورها ارتقاء البلاد .

وينفى تروتسكى وجود الصلة بين قوانين التاريخ ومذهب الانتهاجية (١) . ذلك لأن تعاقب الأحداث لايسير وفقا لمقياس أو منهاج محدد . وهذا - لديه - هو القانون العام للعملية التاريخية ويسفر عن نفسه فى تعقيد وحدة بالغين بالنسبة لمصير البلاد المتأخرة وتحت ضغط سوط الضرورة الخارجية - مصداقا لتعبير تروتسكى - تضطر البلاد المتأخرة الى أن تعدو وتقفز فى طريق الارتقاء .

ومن قانون عدم التسوية الشامل ، يستنبط تروتسكى قانونا آخر يطلق عليه قانون الارتقاء المركب . ويقصد به اجتذاب مختلف مواقع المرحلة معا والتحام الخطوات المختلفة وامتزاج الأشكال القديمة بالأشكال الأكثر حداثة . ويقرر استحالة

(١) مذهب الانتهاجية أو الاقتباسية schematism الجرى على منهاج أو مقياس .

الروسى وجهة تختلف عن الوجهة التى اتخذها تاريخ البلاد الغربية ، اختلاف مرحلة الاقطاع الروسية عن طابع مرحلة الاقطاع الأوربية اختلافا يينا . فلقد نشأت فى أوروبا فى ابان عهدھا الاقطاعى مدن أصبحت مراكز التجارة والصناعة اليدوية ومؤل الثقافة والعرفان . أما فى روسيا ، فلم تنفصل الصناعة اليدوية عن الزراعة قط : وظلت الصناعة يدوية فى غالب الأحيان . ولم تكن المدن الروسية مراكز انتاج بل مراكز استهلاك يتم فيها تبادل السلع الواردة من الريف . وما كان التجار الروس من سكان المدن سوى واسطة بين الريف الروسى والمدن الغربية المستهلكة لحاصلاته . واستطالت هذه العلاقة بمرور الأيام وبلغت ذروتها فى ابان الحرب الامبريالية الكبرى .

وخلص تروتسكى من فكرته عن ضالة الدور الذى كانت المدن الروسية تؤديه فى حياة المجتمع الروسى الى نتيجة مدارها استحالة قيام نزعة اصلاح دينى كتلك التى انبعثت فى مدن أوروبا الغربية وقادت الى نشوء البروتستانتية ، وما تلا ذلك من انبعاث عصر النهضة . فلم يتجاوز الكفاح ضد كنيسة الدولة الروسية انبعاث طوائف دينية ريفية . ولا يمكن اعتبار تمرد الفلاحين على سادتهم ثورة شعبية ضد الحكم القيصرى الجائر ، اذ لاتنبعث الثورات الا من ديمقراطية المدن الصناعية ، ذلك لأن حرب الفلاحين لا يمكن أن تتطور الى ثورة .

وبالأحرى ، لا يؤمن تروتسكى اطلاقا بدور الفلاحين الثورى . وهذا رأى أثبتت الثورة الصينية فسادھ بعد الحرب العالمية الثانية . أعنى أنه اذا كان قيام الثورة الروسية قد دحض آراء كارل ماركس عن ضرورة قيام الاشتراكية فى بلد

تفهم تاريخ روسيا أو غيرها من البلاد التى على شاكلتها بدون ادراك هذا القانون . ويدل على صحة وجهة نظره بالقول بأنه تحت ضغط بلاد أوروبا الغربية الأعظم ثراء ومنعة ، اجتrect الدولة الروسية نصيبا من ثروة شعبها أعظم نصيبا مما تجترعه دول أوروبا من شعوبها . فانبنى على ذلك تردى الشعب الروسى فى الفقر والمسغبة واضعاف أسس الطبقة المالكة ، مما أوقف استغلالها على النسق الذى حدث للطبقات المالكة فى الغرب : تلك الطبقات التى وقفت بالمرصاد للحكم الملكى تحد من سلطانه وتحول بينه وبين تجاوز نطاق محدد ، وهذا عكس ما حدث فى روسيا اذ لم تجد القيصرية الروسية ما يصد استبدادها الذى ورثت قواعده عن بيزنطة وتأثرت أثناء ممارسته بمنهاج الحكم الاستبدادى الأسىوى . وبلغ الاستبداد القيصرى ذروته بنشوء نظام الرق فى نهاية القرن السادس عشر واتخاذھ شكلا محددا فى ابان القرن السابع عشر واستمراره فترة طويلة الى أن ألغى عام ١٨٦١ .

ومن الناحية الأخرى - كما يقرر تروتسكى فى كتابه - قامت الكنيسة بدور يلى دور الأرستقراطية فى صياغة الأوتوقراطية القيصرية ، الا أنها أدت دور التابع . فالكنيسة الروسية لم تستمتع قط بذلك الدور الذى حظيت به الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب . فكان أن قنعت الكنيسة الروسية بدور الخادم الروحى للأوتوقراطية ، وظننت أن فى ذلك تعويضا لها عن مهاتها فى المجتمع فما كان المطارنة والأساقفة الا مجرد نواب عن السلطة الزمنية ، وكان المطارنة يتغيرون بتغير القياصرة .

ومن العوامل التى قادت الى أن يتخذ التاريخ

متقدم صناعيا ، فقد أثبت قيام الثورة الاشتراكية الصينية فساد رأى القائلين بضرورة توافر الصناعة الراقية لقيام الاشتراكية ، واستحالة قيامها بالتالى فى البيئة الريفية .

٢ - نظرة الطبقة المثقفة للبولشفية ودور الجيش

تميز الحزب الشيوعى البولشفى منذ لحظة بداية المرحلة الأولى للثورة باقتناع راسخ بأن منطق الأحداث يوجب توليه زمام حكم البلاد فى نهاية المطاف . وينعى تروتسكى فى كتابه على طائفة من أعضاء الحزب انسياقهم وراء النظريات المجردة ، فكان أن أوصاهم تحليلهم الأكاديمى للعلاقات الطبقة فى روسيا - قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧ بل وقبل ثورة ١٩٠٥ - لنتيجة مدارها أن تسليم حكم الدولة الى البروليتاريا مدعمة بتأييد جماهير الفلاحين سبيل الثورة الظافر . وقامت هذه العقيدة - أساسا - على حقيقة مبناها تفاهة شأن ديمقراطية الطبقة الوسطى واحتشاد الصناعة الروسية فى بضع مدن . الأمر الذى يضى على البروليتاريا أهمية فائقة .

فمن رأى تروتسكى أن نشوب الحرب العالمية الأولى قد أضل كثيرا من الناس عن ادراك مبنى هذه الفكرة ومعناها . فلقد عهدت الحرب الى الجيش بالدور الرئيسى فى الثورة ، وكان الفلاحون عماده ودعامته . ولو كانت الثورة قد سلكت فى طورها - على حد قوله - الطريق الطبيعى (أى لولا نشوب الحرب) لقامت البروليتاريا بالدور الرئيسى بكل تأكيد ولجذبت جماهير الفلاحين الى دوامتها . لكن أضفت الحرب على سير الأحداث منطقا مغايرا اذ تولى الجيش تنظيم الفلاحين على أساس عسكري ولم ينظمهم

على أساس سياسى : فقبلما تجد الجماهير الريفية نفسها متحدة فى نطاق نسيج من الآراء والأفكار الثورية المحددة ، ألقت نفسها متحدة بالفعل داخل سرايا وفرق وفيالق وجيوش . وانتشر أفراد الطبقة الديمقراطية المتوسطة فى صفوف هذا الجيش وأدوا دورا قياديا ، بالمفهوم العسكري والثقافى على السواء . وتشرب أفرادها الأحاسيس الثورية للطبقة المتوسطة ، ولقد تفاقمت حد تدمير الجماهير وأخذت تتلمس الأسباب للتعبير عن سخطها لاسيما بعدما عمت الهزيمة العسكرية جيوش القيصرية . وهاهنا اندلعت الثورة واستعادت القطاعات التقدمية البروليتارية تقاليد ثورة ١٩٠٥ بدفعها الجماهير الشعبية لتنظيم نفسها فى هيئات نيابية أطلق عليها « سوفيات الشعب » وتعنى كلمة سوفيت فى الأصل « مجلس » .

وأصبح على الجيش - وفقا لهذا رأى - أن يوفد مندوبيه الى الهيئات الثورية ، وتم ذلك قبلما يرتفع وعيه السياسى الى مستوى الأحداث الثورية اللاحقة . وما كان ثمة مناص من أن يتألف مندوبو الجيش الى السوفيات من المثقفين وأنصاف المثقفين ممن تصادف وجودهم بين صفوفه ، لا سيما من أصحاب المعرفة السياسية ولو كانت ضئيلة الكم والكيف . فبفضل صحة الجيش ، أمكن للفريق الأدنى من الطبقة المثقفة المتوسطة أن يحرز - مفاجأة - نفوذا جسيما: فإن الأطباء والمهندسين والقانونيين والصحفيين وغيرهم من أصحاب المهن الحرة الخاصة ممن حرموا ممارسة أى نوع من النفوذ السياسى : هؤلاء قد ألفوا أنفسهم - كما يقرر تروتسكى - بين يوم وليلة يشلون وحدات الجيش وجعلوا من أنفسهم زعماء للثورة ، وتطابقت غشاوة آرائهم السياسية - كما يدعى -

الجيش القيصرية . وينعى تروتسكى على الزعماء ذوى النزعات الليبرالية كراهيتهم للحرب وتوجيههم الرسائل الى قادة البلاد المتحاربة لوضع حد للحرب . وخضع الاشتراكيون الروس - كما يقرر تروتسكى - للعامل القومى البحت ، فأصغوا لنداء خلفاء روسيا بشن هجوم شامل على الجيوش الألمانية متوهمين أنه يحقق لروسيا السلام ويحل مشكلاتها المزمنة . وهذه سياسة جافت رأى الحزب البولشفى الذى اعتنق رأيا مداره أن الحرب تنشب بين دول تحكمها البورجوزية وأن ليس للجماهير فيها ناقة ولا جمل ، الأمر الذى يوجب الانسحاب من معمعانها حقنا لدماء الطبقة العاملة التى تبذل أرواحها هدرا لكفالة مصالح الطبقة البورجوازية المستغلة . فلا بدع وأن تنهض الحكومة لمقاومة الحزب البولشفى متهمة إياه بخيانة القضية الوطنية وبالعمالة لحساب الألمان .

ويوضح تروتسكى حملات الحكومة ضد أعضاء الحزب البولشفى ونجاحها فترة ما فى استشارة عواطف فريق كبير من الجمهور ضدهم حتى لقد اضطروا للاختفاء وفر لينين نفسه الى فنلندا . لكن استطاع الحزب البولشفى أن يستغل بمهارة فائقة تدمير الشعب بسبب سوء أحواله . فقامت المظاهرات فى كثير من المدن وبخاصة موسكو وبتروجراد تطالب بتوفير الخبز وترعسها دعاة الحزب البولشفى بالطبع . وتطورت المظاهرات تطورا خطيرا فحمل المتظاهرون الأعلام الحمراء شعار البولشفية . وفى ٧ نوفمبر ١٩١٧ دبر دعاة الحزب ثورة مفاجئة فاستطاعوا تسنم حكم البلاد وكان أول أعمالهم حل الجمعية الدستورية التى كانوا أقلية فيها ، وعقدوا الصلح مع ألمانيا ، واستعصفوا أراضي كبار ملاك الأرض والنبلاء

مع تشوش الوعى الثورى للجماهير ، وكانوا ينظرون الى الحزب الشيوعى نظرة ازدراء بسبب الحاحه فى الاستجابة للمطالب الاجتماعية للطبقة العاملة وللفلأحين .

ويخلص تروتسكى من حديثه عن اشتراك المثقفين الغير الشيوعيين فى الثورة الى نفى صفة الاشتراكية عنهم بدعوى اضمارهم الاحترام العميق للبورجوازية الليبرالية ، وبخاصة وقد اتخذ هذا الايمان بالآراء الليبرالية صورة عملية وقتما تحالف هؤلاء الاشتراكيون مع الطبقة المتوسطة التى أخلصت لآراء الليبراليين الغربيين . وإذا كان بنیان السوفييتات (أى المجالس التى تألفت عقب نجاح ثورة أكتوبر ١٩١٧) قد ارتفع فى سرعة فائقة وعلا علوا كبيرا بفضل الدور الرئيسى الذى طفق المثقفون يؤدونه فى أعمالها ، لكن نجد تروتسكى يعتبر هذا البنیان قائما على متناقضات داخلية حادة لا مناص - فى رأيه - من أن تؤدى الى تدميرها فى مرحلة الثورة التالية . ومناطق نظرة تروتسكى هذه ، ايمانه العارم بالنظرية الماركسية القائمة على ضرورة قيام الثورة الاشتراكية العتيدة على أكتاف البروليتاريا ويقصد بها عمال الصناعة وحدهم .

٣ - عوامل نشوب الثورة

لا يتردد تروتسكى فى كتابه عن تاريخ الثورة الروسية فى التصريح بأن الثورة نتيجة مباشرة للحرب . فلولاها لما اندلعت نيرانها . وبالأحرى ، لا يعزى نشوب الثورة الى ايمان الجماهير بمبادئ الحزب البولشفى وحدها . ولقد رأى أقطاب الحزب فى الحرب وسيلة لتقويض دعائم الحكم القيصرى ، وكانت تداعبهم الآمال فى هزيمة

احتدم خلال فترة ما بين الحربين العالميتين صراع بين هذه الأنواع الثلاثة من الماركسية : الاشتراكية الديمقراطية ، الستالينية ، التروتسكية . وكانت تمثلها على التوالي : الدولية الثانية ، الدولية الثالثة ، الدولية الرابعة ، وادعى أتباع كل منها الاخلاص للقضايا الماركسية متهمه غيرها بالانحراف عن المذهب الأصيل .

لكن عداوة أتباع تروتسكى للأحزاب الشيوعية وللطبقة الحاكمة السوفييتية لا ترقى للطعن فى النظام الاشتراكى الذى أقامته ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ فى روسيا . فما انفكوا يعتبرون الاتحاد السوفييتى دولة العمال وأن النظام السوفييتى قد وفق فى محو الاستغلال الرأسمالى الأمر الذى يدعوهم لتأييده باعتباره وطن العمال . لكنهم يشيرون الى ما يطلقون عليه « التفاوت الاقتصادى البادئ للعيان » ومرده اختلاف الأجور اختلافا واسعا المدى يتيح لقلة ضئيلة من المديرين والخبراء الاستمتاع بمركز مرموق خاص يؤهلهم لاستهلاك حصة من الدخل القومى أضخم بكثير من نسبتهم العددية فى الأمة . ولا تمثل الطبقة الحاكمة السوفييتية - فى نظرهم - طبقة جديدة من المستغلين ، فان ملاك الأرض الرأسماليين هم وحدهم المستغلون وفق تعريف النظرية الماركسية وقد استصفوا من الاتحاد السوفييتى فأصبحت الجماهير السوفييتية تستحوذ على الثروة القومية فالطبقة الحاكمة لاستغل الجماهير ، لكنها - وفق رأيهم - تغبنها وتغشها .

وليست الفكرة القائلة بخطورة حصول صفوة المتعلمين والفنيين والاداريين على مركز خاص فى المجتمع الاشتراكى يؤهلها - أى تلك الصفوة - لتكوين طبقة حاكمة ، ليست هذه الفكرة

وغيرهم ووزعوها على الفلاحين ، وسلموا زمام ادارة المصانع والمناجم الى العمال ، وقاموا بتأميم الانتاج والاستهلاك والغاء الديون الحكومية التى عقدت فى عهد القيصرية ، ومنح الحكم الذاتى للقوميات والأقليات المختلفة ، وجعل السوفييت دغامة النظام الادارى والسياسى للبلاد .

٦ - مصير آراء تروتسكى

ما أن توفى لينين عام ١٩٢٤ حتى نشب صراع على السلطة بين كبار أعضاء الحزب لاسيما ستالين سكرتير الحزب وتروتسكى ألمع أعضائه وأعظمهم شهرة فى ذلك الحين . ولم يكن معارضو ستالين على وفاق : فلقد تألفت المعارضة من عدة عناصر ناهضت الكثير من آراء تروتسكى قبل عام ١٩٢٦ فاضطر لتقبل بعض تلك الآراء مقابل تنازله عن البعض الآخر . لكن وفق ستالين فى عام ١٩٢٧ الى طرد مناهضيه من الحزب ، ونفى تروتسكى من البلاد وألقى القبض على معارضيه جميعا واتهمهم بالخيانة والعمالة للنازية . لكن تجمع معارضو ستالين ونياسسته حول شخصية تروتسكى الذى تولى تأليف منظمة دولية أطلق عليها « الدولية الرابعة » وفيها يتجلى ما أصبح يعرف بالمذهب التروتسكى الدولى الذى يتهم الأحزاب الشيوعية الأخرى بمداهنة الرأسمالية وممالة ما يطلق عليه « البيروقراطية السوفييتية » . وتداعبه الآمال فى أن يتمكن يوما من الأيام من ازاحة الشيوعية السوفييتية عن زعامة الحركة العمالية . وليس لمنظمة الدولية الرابعة فى الوقت الحاضر أية أهمية فى دنيا السياسة ، لكن غدت مركزا للمجادلات الماركسية النظرية عن طبيعة المجتمع السوفييتى وعن غيرها من المشكلات التاريخية العالمية ، ولقد

من بنات أفكار تروتسكى وأنصاره ، فلقد سبق أن نادى بها « ميشيل باكونين » زعيم الفوضويين واستنكرها كارل ماركس لمجافاتها فكرته القائنة بأن استئصال الرأسماليين يعنى تحرر الطبقة العاملة فى سبيل شجب خصومهم الشيوعيين السوفييت ، استعان تروتسكى ومريدوه وأنصاره بأراء باكونين عدو كارل ماركس اللندود .

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٩ (أى بعد نشوب الحرب العالمية الثانية بشهرين وقبل وفاته بعام تقريبا) نشر تروتسكى مقالة بصحيفة الدولية الجديدة أبدى فيها ايمانه الوطيد بأن تلك الحرب لا بد وأن تستفز ثورة بروليتارية تقود الى خلع البيروقراطية السوفيتية عن سلطانها واستعادة الديمقراطية السوفيتية الأصلية .

وظاهر أن الأيام قد أثبتت - عمليا - بطلان رأى تروتسكى وعقم تفكيره . لكن لا يزال لتروتسكى أتباع تداعبهم الآمال فى أن يخلقوا الحزب الشيوعى السوفيتى فى زعامة الطبقة العاملة .

ولا يقتصر أتباع تروتسكى على الاشادة بزعيمهم كماركسى كبير ، لكن يغالى فريق كبير منهم فيجعل منه مفكرا أصيلا عظيما لا نظير له فى الفكر الانسانى ، وهذا مالا يمكن أن يوافق عليه الباحث النزيه :

فأولا - يصعب كثيرا أن تتحقق الأصالة المطلقة فى معظم المفكرين بصفة عامة ، لاسيما ان اتصل الأمر بالماركسية التى تستند على حقائق مقرررة تنزل فى نفوس أتباعها منزلة التقديس .

ثانيا - يسهل على المرء - نسبيا - أن يطنطن بطائفة من التعبيرات التى يتخيل أنه قد أدخلها

على مذهب لا يقتصر الأمر فى بعض الأحيان على غموضه ومناقضته ذاته ، بل كثير ما يحدث أن يتولى أقطاب المذهب تفسير قواعده وأصوله : كل على هواه ، فلا يمكن - والحالة هذه - اعتبارهم مفكرين أصلاء مبتدعين ، لكنهم فى واقع الأمر - مجرد شراح ومفسرين مبتكرين ، ليس الا فان اتصل الأمر بالعمل السياسى الواقعى ، يندفع كثير من الماركسيين - ومنهم لينين نفسه - لوطء المحاريب التى شيدت . ذلك لأن المثالية شىء والواقع شىء آخر .

ثالثا - ما يعتبره مريدو تروتسكى من مبتكراته قد انبعث عن التجارب التى مرت به خلال ممارسته الحكم . وهذا مالم يتحلماركس وانجلز . وبالأحرى لم يصف تروتسكى شيئا للمذهب الماركسى عن طريق أعمال الفكر المجرد . ولقد يتطلب العمل اعدادا ثقافيا خاصا ، لكنه فى صميمه قضية ارادة لاموضوع ثقافى .

فلا يستغرب والحالة هذه أن يدرك الباحث أن مساهمة تروتسكى فى ارتقاء المذهب واستطالته تافهة الى حد بعيد ، لكنه قد ساهم بالفعل بنصيب موفور فى سير الثورة السوفيتية .

ولقد يعد البعض نظرية تروتسكى عن الثورة الدائمة مساهمة ضخمة فى اخصاب الفكر الماركسى لكن الفكرة لاتعدو الا أن تكون نبوءة حتى وان أقيمت على تحليل رصين وشيدت على أساس من التجربة مكين ، ولن يعتبرها الباحث تقدما فى النظرية الماركسية ، فانها فى الحقيقة مجرد برنامج للفعل وقتما تضاءلت فرص كفالة العمل المباشر فى ابان وضع قواعد النظرية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ، ثم اقتصر الارتفاع بها

على استخدامها شعارا فى الحرب التى شنها تروتسكى وأتباعه على ستالين .

٧ - مقتطفات من كتاب الثورة الروسية لتروتسكى

١ - اليوم الحاسم

فى فجر يوم ٧ نوفمبر ١٩١٧ أقبل علينا العاملون بمطبعة الحزب وأبلغونا أن الحكومة أوقفت صحيفة الحزب الرئيسية كما أوقفت لسان حال سوفيت بتروجراد ، وفى الحال : نهضت اللجنة الحربية الثورية بعء مناهضة قرار الحكومة وآلت على نفسها حماية حرية الصحافة الاشتراكية من طغيان الحكومة . وازاء ضغط الحزب عادت الصحيفتان للصدور فى مواعيدهما المحددة . ولقد وصل الهوان بحكومة كيرنسكى^(١) أن تقلص نفوذها حتى أصبحت والعدم سواء بسواء ، فاندفعت قواتنا فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ تحاصر قصر الزرقاء حيث كان يقيم أعضاء الحكومة . وفى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر أعلنت باسم اللجنة الحربية الثورية فى سوفيت مدينة بتروجراد نهاية حكومة كيرنسكى وأن اللجنة ستتولى مؤقتا أعمال الحكومة انتظارا لقرار المؤتمر العام لجميع السوفييتات .

كان لينين قد غادر فنلندا قبل ذلك ببضعة أيام، واختفى فى أحد الأحياء الشعبية باحدى ضواحي بتروجراد . ودار فى خلدته فى بداية الأمر أننا قد توصلنا الى حل وسط مع حكومة كيرنسكى ، وكان صراخ الصحافة البورجوازية يدوى بالادعاءات والأكاذيب عن ثورة وشيكة تسيل من جرائها الدماء فى الشوارع كالأنهار وتسود بسببها الفوضى أنحاء البلاد . ولم يحدث هذا على الإطلاق فلقد تم استيلاء جنود الجيش الأحمر وبحارة الاسطول

(١) حكومة كيرنسكى التى تالفت عقب تنحى القيصر عن العرش وإعلان الجمهورية .

الأحمر ومندوبى السوفييتات على جميع السلطات فى يسر وسهولة بالغين من غير أن ينشب فى الشوارع قتال ولم تسل الدماء .

وفى مساء ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ عقد المؤتمر الثانى الروسى لجميع السوفييتات اجتماعا تمهيدا وكان قصر الزرقاء وقتذاك محاصرا وكانت طلقات الرصاص تسمع ، بينما كان جنودنا المعسكرون بقلعتى بطرس وبول يطلقون من حين لآخر قنابل على بقايا أنصار حكومة كيرنسكى المقيمين بالقصر واتسم جو الاجتماع بالكلمات النارية والعبارات النابية ، فاستحالت مناقشة الموضوعات المعروضة على بساط البحث والمناقشة على أساس هادىء من التفكير السليم والمنطق الرصين .

ولما استولى جنودنا على مقر الحكومة وفر رئيسها الى خارج البلاد ، انحازت الى صفوفنا العناصر المترددة من أعضاء المؤتمر ، أما العناصر اليمينية من حزب الاشتراكيين الثوريين ومن المنشفيك - وكانوا يكونون عشر أعضاء المؤتمر - فقد غادروا قاعة الاجتماع وألقوا مسؤولية ما سيحدث بعد انهيار حكومة كيرنسكى على عاتق البلاشفة . وانضم الاشتراكيون الثوريون - وكان الرينف معقل نفوذهم الى المنشفيك والى البورجوازيين والليبراليين فتكونت منهم جبهة لمحاربة الحزب البولشيفى .

٢ - مجلس قوميسارى الشعب

انعقد بتروجراد النصر الكامل للحزب الشيوعى البولشيفى . فأصبحت اللجنة العسكرية الثورية تقبض على عنان السلطة تماما . وكان من أوائل قراراتنا إلغاء عقوبة الاعدام ، والأمر بإجراء انتخابات جديدة للجان الجيش ، الخ من الاجراء التنظيمية .

لكن ألفينا أنفسنا بمعزل عن الأقاليم نظرا للموقف العدائى الذى اتخذته ضدنا القائمون على أمور السكك الحديدية والبريد والتلغراف الأمر الذى استحال معه وصول قراراتنا الى الأقاليم، فانزلت العاصمة عن بقية البلاد فلا بدع وأن تروج الاشاعات وتنتشر الأخبار المصطنعة .

واذ استولى السوفييت على السلطة وألقى القبض على أعضاء الحكومة القديمة وسيطرت جنودنا على شوارع بتروجراد سيطرة تامة ، طفقت الصحافة البورجوازية وصحافة المنشفيك والاشتراكيين الثوريين تشن علينا حملات محمومة لانظير لها على الاطلاق ، فلم تترك تهمة أونقيصة الا وألصقتها باللجنة العسكرية الثورية .

وفى ٨ نوفمبر سنة ١٩١٧ عقد سوفييت بتروجراد اجتماعا حضره كذلك أعضاء المؤتمر السوفييتى العام لجميع روسيا وأعضاء مؤتمر حامية بتروجراد وعديد من أعضاء الحزب . وبث حضور كل من لينين وزنوفيف (١) اجتماعات السوفييت لأول مرة بعد عودتهما من المنفى الحماس الفائق فى نفوس المجتمعين فهتفوا لهما طويلا . لكن اختلطت فرحتنا بالنصر بشئ من القلق عن مدى قدرة السوفييتات على الاضطلاع بشئون الحكم . وفى مساء اليوم نفسه عقد مؤتمر السوفييتات جلسة من الأهمية بمكان عظيم ، وقدم لينين خلال الاجتماع مرسومين يتصلان بكفالة السلام والأرض ، وتكونت فى خلال الاجتماع سلطة مركزية جديدة : مجلس قوميسارى الشعب .

(١) من أقطاب الشيوعيين الأوائل الذين استصفاهم

ستالين بعد ما خلى له الحكم بطرد تروتسكى من الحزب ونفيه الى خارج البلاد .

وبذلت لجنة حزبنا المركزية جهودا شاقة للاتفاق مع الجناح الأيسر من حزب الاشتراكيين الثوريين فذعهم للاشتراك فى تكوين الحكومة السوفيتية لكن رفض أعضاؤها ذلك محتجين بضرورة تأليف حكومة ائتلافية من جميع أعضاء الأحزاب المشكلة فى السوفييتات ، وكان أنصار المنشفيك والجناح الأيمن من حزب الاشتراكيين الثوريين قد قطعوا كل صلة تربطهم بمؤتمر السوفييتات . فلم يبق هناك مناص من اضطلاعنا وحدنا بمسئولية حكم البلاد ، وفى هذا مافيه من مخاطر سياسية وإن كنا مؤمنين فى قرارة أنفسنا بقدرة حزبنا على تكوين حكومة ثورية صميمة .

٣ - مبادئ الديمقراطية فى ظل ديكتاتورية

البروليتاريا

باعتبارنا ماركسيين ، لسنا من عباد الديمقراطية الشكلية . فى مجتمع ينشق الى طبقات ، تعجز التنظيمات الديمقراطية عن محو الصراع الطبقي . ذلك لأن الطبقات المالكة تحرز آلافا من الوسائل لتحريف ارادة الجماهير العاملة وتزييفها ، ويتفقم عجز التنظيمات الديمقراطية فى خضم الاتفانسات الشعبية . ومما يؤثر عن ماركس قوله « السورة قاطرة التاريخ » ، وبالتالى يمكن الصراع المباشر والعلنى فى سبيل السلطة الجماهيرية العاملة من احراز ثروة من التجربة السياسية فى غضون فترة قصيرة فتنتقل - بالتالى - من مرحلة لأخرى فى عملية تطورها الذهني . ولن تتمكن التنظيمات الديمقراطية من مجاراة هذا التطور .

٤ - مباحثات السلام

اتخذ المؤتمر العام للسوفييتات قراره التاريخي باقرار السلام ، ولم يكن للهيئات السوفيتية

— وقتذاك — نفوذ الا في مدن البلاد الكبرى ، وما عدا ذلك اتسم موقف الناس حيالها باللامبالاة وكنا نتخذ قراراتنا بالاجماع ، ولم يكن يعنى بها سوى القليلون . وطفق أصحاب أنصاف الحلول يرددون القول عند كل منزل بأن قرارات حزبنا لن تؤدي الى أية نتائج عملية طالما أن الامبراليين الألمان لن يعترفوا بنا ولن يتنازلوا بالتحدث إلينا ويخشى أن يعلن حلفاؤنا الحرب علينا لدخولنا منفردين في مباحثات صلح مع العدو المشترك .

وفي ظل هذه التكهنات الكئيبة ، اتخذنا خطواتنا الأولى صوب سلام ديمقراطى عالمى . وفي ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٧ أرسلنا عبر البرق مقترحاتنا لاقرار سلام شامل الى حلفائنا وأعدائنا على السواء . فانصبت على رؤوسنا احتجاجات حكومات حلفائنا وأنذرونا باتخاذ اجراءات خطيرة ضدنا ان عقدنا مع الألمان صلحا منفردا . فانحصر ردنا فى توجيه بيان الى عمال وجنود حلفائنا وفلاحهم أعلننا فيه أننا لن نريق دماء جيشنا أيا ماتكون الظروف دافعا عن مصالح حكومة أجنبية بورجوازية . وأبدينا اللامبالاة بتهديدات الامبراليين الغربيين وتحملنا أمام الطبقة العاملة الدولية مسئولية انفرادنا بعقد الصلح . وابتدأنا باماطة اللثام عن الاتفاقيات السرية وأعلننا بطلان ما يناهض منها مصالح الشعب فى كل مكان ، وجعلنا غاية دبلوماسيتنا استنارة الجماهير الشعبية وهوايتها الى طبيعة سياسة الحكومات التابعة لها وزجها فى صراع مشترك ضد النظام البورجوازى الرأسمالى البغيض .

وفى ٥ ديسمبر سنة ١٩١٧ وقعنا اتفاقية توقف الأعمال العدائية على طول الجبهة الممتدة من البلطيق الى البحر الأسود . وناشدنا حلفاءنا — مرة أخرى — مشاركتنا فى السعى لاقرار السلام ، فأهملوا

الرد علينا كلية . وبدأت مباحثات السلام فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩١٧ وأعلن مندوبونا المبادئ التى تحدد أساس السلام الديمقراطى الشامل . ووافق ممثلو ألمانيا وحلفائها على مبدأ تقرير الأمم مصيرها لكن بدا لنا أن الموافقة شكلية لذر الرماد فى العيون . ذلك لأن المفاوضات الألمان قد سيطرت عليهم فكرة أن روسيا تسعى للحصول على السلام بأى ثمن وأن البلاشفة ماتسلسوا زمام حكم بلادهم الا بفضل وقوفهم الى صف قضية السلام . فكان أن رسمت السياسة الألمانية خطة مؤداها الاستيلاء على أعظم قدر ممكن من الغنائم مستترة وراء فكرة السلام الديمقراطى التى نادينا بها شرطا لاقرار السلام . وفى كثير من الأحيان كان الجنرال هوفمان رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألمانى يركل مائدة المفاوضات بحذائه . الأمر الذى جعل المفاوضات الروس يؤمنون بأن حذاء الجنرال الحقيقة الجدية الوحيدة فى المباحثات .

وتجاوزت الأمور هذا المدى كثيرا بحضور مندوبى الحزب الوطنى الأوكرانى « حزب رادا » المباحثات مطالبين بتكوين دولة أوكرانية مستقلة عن روسيا واستخدمهم المفاوضات للضغط على المندوبين السوفيت ولتمزيق وحدة الاتحاد السوفيتى . وفى ٩ فبراير سنة ١٩١٨ وقع مندوبو حزب « رادا » اتفاقية مع ألمانيا وحليفاتها ، لكن انتهى أمر هذا الحزب قبلما تدخل الاتفاقية حيز التنفيذ العملى . وترتب عن ألاعب السياسة الألمانية قطع المباحثات واستئناف الحرب .

٥ — استئناف القتال وتوقيع اتفاقية السلام

أصبحت الحكومة الألمانية عقب انقطاع المباحثات بحيرة بالغة . فظاهر أن السياسيين والدبلوماسيين

الدفاعية ، وان من عقم التفكير أن نقيم أفعالنا على مبادئ ثورية مجردة . ولا يكمن لبس الموضوع في أن نفنى بشرف ولكن في أن نعيش لنحقق النصر ، فالثورة الروسية تريد أن تعيش ويجب أن تعيش . ولهذا يقتضى الحال أن لاتساق البلاد الى معركة فوق طاقتها الفعلية الأمر الذى يدفعها للسعى لكسب الوقت منتظرة أن تفسد الحركة الثورية في الغرب لعونها. ان هناة الثورة يجب أن تكون أسمى قانون .

وصوت الى جانب السلام أغلبية أعضاء مؤتمر الحزب الشيوعى ، وأغلبية أعضاء مؤتمر السوفييتات .. وهكذا وقع مندوبو الحكومة السوفييتية اتفاقية أشر وأضل من مشروع الاتفاقية الأولى ، واتجهت الدولة الناشئة لعلاج مشكلات من أقصى ما مرت به أمة من الأمم . فالحالة الاقتصادية قد وصلت الى الحضيض ، ودمرت الثورة جهاز البلاد الادارى دون أن تهيأ لها الفرصة لتكوين جهاز جديد عوضا عنه ، وأرغم عمال المصانع على الابتعاد عن حياة البلاد الاقتصادية ، وتمزقت الطبقة العاملة خلقيا وذهنيا ، وعمت الفوضى أوساط الفلاحين الذين اعتقدوا بأن الثورة تعنى فقط بالاستيلاء على الأرض وتدع لهم أمرها وفق أهوائهم ونزواتهم . ومن الناحية الأخرى أبت الطبقات المميزة التخلّى عن مراكزها من غير قتال ضار ، فاندلعت نيران الحرب الأهلية في طول البلاد وعرضها وجلبت الحرب الأهلية معها نزعات الفوضوية في حركة الجماهير العاملة . لكن النظام السوفييتى لم يفقد ثقته في المستقبل لايماحه بقدره النظام الاشتراكى وفعاليته»

فؤاد محمد شبل

لم يجدوا داعيا للجري وراء توقعاتنا . أما رجال العسكرية الألمانية فكانوا على استعداد تام لتحطيم المبادئ التى أعلنتها حكومتهم أساسا للصلح . وانتصر رأى العسكريين ، فاستأنف الجيش الألمانى في ظل ظروف قاتلة لروسيا . اذ عمت الفوضى صفوف الجيش الروسى ، فما كان الجنود يتصورون استئناف الألمان الهجوم بعد اعلان الحكومة السوفييتية انتهاء القتال ورغبة الجميع في اقرار السلام . على أن عمال موسكو وبتروجراد وغيرهما أبدوا حماسا فائقا وتآلفت منهم فرق لحرب العصابات لكن لم يكن لهذا جدوى من الناحية العملية فى صد الألمان ، وما كان ليعيق تقدمهم سوى مساحة روسيا الشاسعة .

وكانت امبراطورية النمسا - المجر تتطلع بعين الجشع الى أوكرانيا ، واليها وجه مندوبو حزب رادا الأوكرانى الانفصالى الرجاء لتزويده بالمساعدة العسكرية ضد الاتحاد السوفييتى الذى كان قد حقق وقتذاك انتصارا حاسما في أوكرانيا بأسرها .

واستمر النقاش في صفوف حزبنا فيما اذا كان علينا فى ظل هذه الظروف أن نخضع للانذار الألمانى بتوقيع معاهدة تجديده للصلح أشد من المشروع الذى قدموه فى برست ليتوفسك . فكان رأى فريق الامتناع عن توقيع معاهدة مع الألمان لأنهم يناصرون الديكتاتورية البورجوازية فى قسم من أقسام روسيا ، بينما ارتأى فريق آخر - على رأسه لينين - التوقيع بأفضل الشروط الممكنة لتعطى للجمهورية السوفييتية الناشئة فسحة من الوقت لتعزيز مركزها الداخلى ولاستعادة قدرتها